

— سأعود الى البداية .

— مستحيل !

— فكيف يؤمن أخوك بأنهم سيعودون منذ البداية ؟

— سمعوا ذلك من شيوخهم . والشيوخ لا تذكر من البداية سوى عنفوان الشباب ، فتستحلي البداية . هل تعرف البداية ، حقا ، يا عمي ؟ ليست البداية ذكريات عذبة ، فحسب ، عن صنوبر فوق الكرمل أو عن بيارات فوق ظهوركم ، أو عن اغاني بحارة يافا . هل كانوا حقا يغنون ؟ .

— هل تتركيني ؟

— الماء لا يترك البحر يا عماء . يتبخر ثم يعود في الشتاء . ويعود انهارا وجداول . ولكنه يعود .

— فهل أبقي وحيدا ؟

— حتى ضرير السلكة لم يعيش وحيدا . اذهب واصنع الحصر في قرية السلكة . ولكنني لم اذهب الى قرية السلكة ، ولم اصنع الحصر لا في السلكة ولا في غيرها . فقد اقبل العسكر . فبقيت في موضعي بلا حراك سوى اني وضعت يدي فسوق عيني فأغمضتها حتى لا ارى النهاية كما رأيت البداية .

فشعرت وكان أيدي العسكر تدفعني الى الخارج وتذفني على الدرجات . فأجدني مرتبيا في فناء الدرج . فلا استجد بصاحبي يعقوب هذه المرة الذي اصبح يحتاج الى من ينجده .

واسمع من فوق ، في منزلي ، صراخا اثويا ، وصوت لطبات وركل وجلبة ، وأرى معركة حامية تدور بين يعاد والعساكر . واراها تقاوم وتصرخ وتركل بقدمها . واراها تعض كنف احدهم فيصيح من الالم ويولي بعيدا . واراها ينكثرون عليها ويدفعونها امامهم الى سيارة الترحيل واسمعها ، والسيارة تتحرك ، تنادي : سعيد ، لا يهيك ، فأنني عائدة !

وفتحت عيني وشهقت قائلا : ها قد عدنا منذ البداية !

لكنني رأيت عجبا . رأيت ضابط الشرطة يقرأ في اوراق يعاد بكل احترام . وسمعته يعتذر لها عن الامر الجديد الصادر بالغاء الاذن بدخولها الى اسرائيل ، وعن الزامها بالعودة — معهم — الى نابلس حالا . وقال انه عليها ان تعود ، غدا ، من حيث أتت . أي عبر الجسر .

وسمعتها تقول : لم انتظر منكم غير ذلك .

فأجابها : لم ننتظر منك الاقامة في بيت سعيد .

فصاحت : هذا بلادي ، داري ، وهذا عمي !

قلت في نفسي : سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة .

قال : ممنوع .

فقالت انها لم تنتظر منهم سوى ما هم يفعلون . فكيف تنتظرون منا سوى ما نفعل ؟